الفصل الثامن

خميس مشيط

لقد تحاشينا المسيل الصعب الذي عن طريقه يدخل شعيب شدا إلى وادي شع المواجه لخيبر ووصلنا إلى مستجمع الأمطار عند المسيرق. اتجه طريقنا الآن إلى شعيب شدا عبر المضايق، وتعمقنا في هذا المجرى مسافة ميلين إلى جنوب مرتفع معو. تأكد لنا الآن أنه أسوأ قطعة أرض تسلكها السيارات حتى هذا الموقع. كنا بلا شك في مناطق غزيرة الأمطار، على الرغم من أننا لا نزال عند السفوح الجبلية للبلاد، شيئاً ما ناحية الغرب من الجبال العظيمة، ولم يكن وادي شدا هذا فقط محفوراً بكثافة بواسطة السيول، ولكن بطنه كان مملوءاً بالشجيرات الخفيضة. وكانت قيادة مضنية أن نتصادم داخل سياراتنا ونحن في هاتين العقبتين. يجري الوادي شمالاً وجنوباً ومجرى سيله عريض متعرج مكوّن من رمال وحصى وكان عرضه في المتوسط، ما بين ١٠٠ و ١٥٠ ياردة.

اتسع الوادي تدريجياً أثناء صعودنا لمجراه، وقد توقفنا عند إحدى النقاط لوضع زوج من طيور الرقراق (سمق) في حقيبة العينات. وبعد قيادة مسافة ١٢ ميلاً، وكانت صعبة في بطن هذا الوادي حيناً وعلى أي من جانبيه حيناً آخر، كنا نبحث عن شريط قليل المقاومة وخرجنا أخيراً إلى واد واسع، كان -أيضاً- صعباً جداً؛ لنجد أنفسنا عند تقاطع الطريق. كان الطريق اليسار والمتجه إلى الشمال الشرقي هو طريق نجران الرئيس، الذي سنسلكه في الوقت المناسب. ويهمنا الطريق الذي يقع إلى الجانب الأيمن، الذي يقود عبر شعيب الجحف إلى خميس مشيط وما يليها، وإلى أبها نفسها عاصمة منطقة عسير.

ارتفع الهرم الكامل لقرن ذلك البركان الخامد القديم، إلى مسافة منا وعلى يسار طريق نجران. كما ارتفع إلى البعيد، ناحية الجنوب الشرقي، جبل القعمة من سلسلة جبال السرات الرئيسة. وبرز ناحية الجنوب الغربي -أيضاً في السرات- تل يذكرنا بقرنيت كما يرى من الطائف.

أما شعيب الجحف الذي يبدو كأنه امتداد مرتفع لشدا فهو يأتي منحدراً من منبعه من عند تل يسمى مثو إلى جنوب الجنوب الشرقي، ويقع أمامنا على طريق أبها، أرض كبيرة من قمم جرانيتية وجلاميد. وتوجد إلى ناحية جنوب الجنوب الغربي السلسلة الطويلة العالية التي تسمى أحد، وهي مناطق رفيدة التابعة لقحطان.

كنا عند تقاطع الطريق هذا على ارتفاع ٧٠٠ قدم فوق خيبر، وحوالي ٣٠٠ قدم أو ما يقارب ذلك فوق قمة المعو. كنا نصعد باعتدال طيلة الوقت.

انغرزت إحدى سياراتنا في رمال بطن الجحف، وأضعنا بعض الوقت في إخراجها، وقد أصبح الوقت متأخراً بعد الظهر. عبرنا الفاصل المنخفض بين الجحف وروافده، على مسافة أربعة أميال فيما يلي التقاطع وذلك بعد عبورنا لمسال قبيح شديد الانحدار ورملي، يسمى المديد، ويقع وادي حنجر أمامنا الآن.

عبرنا هذا الوادي بعد قيادة استمرت ثلاثة أميال فوق بطن سيل رملية، ضيقة مغطاة بالقصب وجنبات النخيل القصيرة وعدد كبير من أشجار التين البري -الحماط- كانت نامية بين الصخور الجرانيتية والجلاميد على كلا الجانبين. كان الوقت الآن يقترب من الخامسة مساء، وقد أحسست بالتعب؛ لذا قررنا أن نعسكر هنا لقضاء الليلة في هذه البقعة الجذابة.

اتضح لي حقيقة أنني أكثر من مجـرد امرئ مرهق فقط. فما أن تخفف عني ضغط القيـادة في هذه البلاد الصعبة، حـتى أحسست بالقشعـريرة تتملكني، وقد امتـدت أصابعهـا وبدأت أرجف فجأة كـأوراق شجر الحـور التي ترتعش إذا هب عليهـا النسيم. ودخلت تحت ملاءات سريري بملابـس النوم كي أنام للتخلص من الحمى بمساعدة دواء الإسبرين، ولحسن الحظ فقـد كانت نوبة الحمى خفيفة، والتي أملت عليَّ أن أنام طويلاً حـتى الصـباح. لم أقـبل العشـاء حينمـا أحضـر إليَّ، ونزعت من ذهني كل تفكيـر في ملاحظة الفلك. يكفـيني هذا في هذه الليلة التي حطَّ عليَّ فيها المرض وصحوت مبكراً، نشيطاً وعلى أتم استعداد لمواصلة أنشطتي المعتادة.

وشاهدت بعض الأبقـار ترعى الأعشاب الغنية داخل المجـرى وصوله، ومن المعتقد أنهـا وصلت من قرى تندحة وهي ليست بعيـدة من هنا. حتى التين البري كان له زبائنه مـن الطيور، خاصـة السوَّادية، وهذه علامـة مؤكدة عـلى قربنا من المرتفعات الحقيقية، كما شاهدت يمامة، وهي من نوع جديد بالنسبة لي ومميز لمنطقة اليمن والحبشة. كما قمت بوضع جرذ فـي كيس العينات كان يتحرك فوق صخور جرانيتـية. وصلَتْ إلى المعسكر في هذه الأثناء سيـارتان لمجموعتين صـغيرتين من أتباع الأمير فـيصل برئاسة عثمان بن عـثمان، في طريقهما إلى أبـها. لقد غادروا السيل في اليـوم الثلاثين من الشـهر، ورنية في اليـوم التالي وبيـشة في الأول من يونيو ليصلوا إلى معسكرنا في تمام الساعة الثـامنة صباحاً في اليوم الثاني من يونيو – سفر جيد ولكنه كان صعباً بالـنسبة لسياراتنا. أستطيع أن أرى جبل تَيَّة التي تقع وراء أبها، من رأس أعلى قمة جرانيـتية في هذا الجوار – ترتفع إلى ٥,٥٠٠ قدم فوق سطح البـحر–، والتي يقال إنهـا تقع على الجانب القريب لتل منعـزل يسمى

ضـرة الذي يمكن -أيضـاً- رؤيتـه في الاتجـاه نفسـه -غـرب الجنوب الغـربي-. تواصلت سلسلة جبـال أحد في الجنوب الغربي -الحـاجز الدائري- مع تل هرمي بارز يسمى ضمَك وتقع في السهل أمامه وبالقرب من المرتفعات العليا لمجرى وادي بيشـة. تقع سلسلة جبال الصنعـة إلى الجنوب الشرقي، وهي سلسلة غيـر مميزة، جرانيتية فيما وراء القفر المنتشرة فيه الجلاميد والذي يمتد أمامنا، ويعرف بالهضب. تستـمر سلسلة جبـال القعمـة إلى جهة الشـرق لتواصل الحاجـز الجبلي الرئيس. وينحدر من هذا الاتجـاه شعيب حنجر ليـواصل سيره ناحية الجنـوب الغربي (تجاه بيشة) ماراً بمعسكرنا. وتقع فوهة القرن إلى الشمال منا.

اكتشفنا مع استمرار رحلتنا، أن حنجـر يتصل مع تندحة على بعد ميل واحد إلى أسفل، وليعود بعد فترة من سلسلة جبال القعمة وينساب ناحية الشمال الغربي قليلاً من هذا الموقع إلى داخل بيـشة. اخترنا بعد عـبورنا هذا أرضاً صعبـة تعبره وتتقاطع معه، خطوط تصريف صغـيرة مغطاة وبكثافة، بنبات القصب (النمص)، إلى أن نصل مجرى تندحـة -هذا غير تندحي المتقـدم- الذي وصلنا عبره، وعلى بعد نصف ميل إلى قريه تندحه، وفيما يليها إلى قرية أخرى تسمى القرارة تقع في مجرى يحمل الاسم نفسه وينحدر من سلسلة جبال الصنعة.

كان يوجد بعض المـاء في المجرى، وفي الموقع الذي عبرناه فيـه كانت هنالك بقعه كبيرة ذات مروج ترعى فيهـا أغنام وأبقار. يتصل مجريا القرارة وتندحة قليلاً أسفل القـريتين اللتين يحمـلان اسمـيهمـا، وتعلَّم المجرى المتـحد عـدد من قرى أخرى، تجـاه وادي بيشـة هي: غيـثان، وآل حـجَّاج، وآل ظلال، آل مـستنـير، والحـوطة، بهذا التـرتيب تتتـابع إلى أسفـل على مسـافات من نصف الميل حـتى الحوطة، وفيما يلي هذه، فلا توجد قرى في مجرى الوادي إلى أن يصل إلى قرى

بيشة التي تم ذكرها سابقاً. تنتمي القرارة إلى قبيلة ناهس التابعة لشهران، وكل القرى الباقية إلى كود.

سرنا فوق سهل ضخم منحدر، فيما يلي القرارة، كانت عليه بروزات وقمم جرانيتية، تذكرنا باقتراب الطائف. كما وقفت إلى ناحية الغرب تلك الجبال العظيمة التي يزداد وضوحها كلما اقتربنا منها، كما يمكننا الآن رؤية كل الامتداد للحجاز من عند فجوة أبها (ضيره) تجاه غرب الجنوب الغربي إلى فجوة أخرى تجاه غرب الشمال الغربي والتي شمخت من خلفها الكتلة البارزة لتلال شعار، معلمة الموقع الذي عبره يمر واحد من أعظم الطرق التجارية بين أبها ومواني البحر الأحمر، والذي يصل إلى قمته في هذا المكان. يتم تصريف هذا السهل- الهضبة، المنحدر والذي نسافر فوقه الآن، عن طريق حوض منخفض يسمى الشرف والذي يميل تدريجياً تجاه ناحية الطريق المنحدر الذي نسلكه الآن للوصول إلى وادي بيشة.

كان المنخفض مكسواً بغطاء نباتي وشجيرات خفيضة وبعض أشجار الطلح التي شاهدت فيها بعض الطيور، وكثيراً من العصافير المغردة، إلى جانب القنبرة المتوجة. عبرنا فوق الجانب الأيسر للمنخفض لنواصل السفر فوق سهل جرانيتي مماثل -والذي من ورائه- وبعد أن غطينا مسافة ثمانية أميال من القرارة، بدأت تظهر أمامنا أول علامات القلاع العظيمة والمباني لخميس مشيط. وصلنا إلى قصر أبو ملحة بعد دقائق من منتصف النهار، بعد أن غطينا، ١٤ ميلاً من معسكر حنجر فقط، ٥٠ ميلاً من عند خيبر. وبالضبط كانت المسافة من الروشن ١٤٨ ميلاً، غير أن المسافة عن طريق الوادي من الروشن إلى خميس مشيط ربما كانت

لا تزيد عن ١٠٠ ميل، والأخيرة هذه ربما كانت على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم أعلى من الروشن، وكان متوسط الارتفاع هو ٢٥ قدماً لكل ميل.

ما يدهش فيما يخص السفر في صحراء الجزيرة العربية، أن المرء قد يجد نفسه فجأة، حين وصوله إلى أي من الواحات العظيمة قد أصبح محاطاً بكل أدوات الحضارة عالية التطور. من حيث الأساس، فإن ثقافة كل القرى في المناطق متشابهة، غير أن لكل منطقة خصوصيتها - يستطيع المرء أن يميز شخصية كل منطقة عن المناطق الأخرى. ويوجد بصفة عامة خط قاسم عريض بين مناطق الشمال (نجد وتوابعها) وتلك التي في الجنوب. كانت بيشة -وهي ما يخصنا في هذه الرحلة- آخر ما يمثل الحضارة الشمالية، على الرغم من أن منظر السوق هناك -كما ذكرت- كانت له مسحة واضحة لنمطه الجنوبي. كانت خميس مشيط -بالتأكيد- أول المناطق «الجنوبية» في طريقنا.

لم أضمِّن خيبر لأنها ليست بذات أهمية، على الرغم من أنها قد عاشت أياماً أحسن، وكان اكتشافي للنقوش الثمودية هناك يشرح الصلة مع حضارة سابقة في المرتفعات في تضاد مع حياة البدو الأمية في الصحراء. ربما لم يكن لحياة البادية الضاربة في التاريخ أداة معرفة بالقراءة والكتابة مطلقاً. وجواهر شِعْرها، التي قيلت لهواء الصحراء قد اختفت إلاَّ من جزء يسير تم الحفاظ عليه بالصدفة بعد مولد الإسلام. بينما في القرى والمدن، من الجهة الأخرى، فإن النقوش الحميرية والسبئية أذكت الطموحات الأدبية ليقود هذا إلى ظهور الأبجدية التي كانت ميسرة لنقل السجلات الأدبية وغيرها من السجلات من جيل إلى جيل. على أي حال، فإن أول نقش كتابي -حقيقة- أصبح معروفاً لدينا، هو اختراع

جاء به الفينيـقيون الذين كانت أصولهم، من هذه المدن الجنوبية الغـربية في جزيرة العرب القديمة.

بشَّر عثمان باقـترابنا، وكان قد سبقنا من حنجر ومنحنا باستـقبال أميري عند باب قصـرهم – القلعة الرهيبـة في مقدمتـه الأبناء الثلاثة عبـدالوهاب أبو ملحة، الذي كان حينها مـتغيباً في أبها فـيما يخص واجباته كمفـوض مالي لكل المنطقة، التي تضم خميس مشيط، وقرى تندحة ومـجموعات من قرى أخرى عند السفوح الجبلية. كان الشيخ الأعـلى لعموم قبيلة شهران، هو سـعيد بـن مشيط، من قبيلة آل رشيد والذي كان مسكنه قصراً مهيباً عند النهاية في أعلى الوادي لمنطقة خميس مشيط، بالتـحديد في قرية تسمى ذهبـان وقد زرته فيما بعـد أثناء إقامتي في هذه الأنحاء. يملك كل القـرى والقرى الصـغيرة لخـميس مشـيط – وهذا يعني سوق الخميس لمشيط –كنيـة الشيخ الإسمي للأسرة الحاكمة – أناس من قـبيلة آل رشيد التابعة لشهران الذي ينتمي إليه مضيفي أبو ملحة.

على الرغم من أن أبناءه الثلاثة عـبدالله، وعبـدالعزيز، وسعيـد كانوا كلهم قاصرين إلا أنهم اسـتقبلونا بالأخلاق التي ولدوا بها بفطـرة أرستوقراطية طبيـعية لديموقراطيـة الجزيرة العربيـة، والتي كانت من عدة وجـوه مذكرة لنا بديموقـراطية الإغريق القدماء حتى إلى مستوى العبـيد والرقيق لتلك الحقبة العظيمة، وحتى إلى عزل النساء. قادنا عـبدالله، أكبر الثلاثة وهو صبي جميل في السـادسة عشرة من عمره، إلى الطابق الأول من قصـره، الذي توجد فيه غرف الضيـافة الرئيسة وهي مكونة من: غرفة كبيرة أرضيتها مـغطاة جيداً بالبساط، وغرفة رسم أصغر، مغطاة أيضاً ببـساط مماثل، ويخـرج منها المرء إلى غرفـة حمام واسـعة ومـؤثثة بأسلوب بسيط، متصل بها مرحاض ذو الأخدود المألوف والثقب في الأرضية.

أخبر عثمان مـضيفنا أن يتوقعونا عند الساعة الحادية عـشر صباحاً وقد رحب بنا محبوب وهو العبد المنزلي الرئيس وكبير الخـدم بعد ساعة، حاملاً معه الأخبار بأن الغداء جاهز. جلسنا، في هذه الأثناء، نتبادل شـرب القهوة والشاي ونتحادث مع مضيفينا الشباب، -بالمناسبة فقد تم إشعال مجمرة ضخمة لراحتنا- غير أني قد توسلت لإبعـادها حيث إن الطقس دافئ أكـثر من اللازم -حـوالي ٩٠ درجة في الظل من الخارج وباردة في الغـرفة دون حاجة للنار- وظللنا مـشغولين هكذا إلى الساعة الثانية مساءً دون ظهور أي علامة لوجبة غداء قادمة. تطل نوافذ هذه الغرفة على أحد الجـوانب على ساحة داخليـة، حيث تحفظ الحـيوانات المستـأنسة، ومن الجانب الآخـر، إلى الخارج، تطل النوافذ على عدد من القـصور ناحية الـشمال، والتي تكوّن قرية العرق، بالإضافة إلـى القصر الذي نحن فيه الآن. لاحظت وأنا أتطلع إلى هذا المنظر حديقة بجوار القـصر، وأعتقد أن مضيفينا قـد ارتاحوا كثيراً لاقتراحي أن نقوم بزيارتها في انتظار الغداء.

وهكذا انطلقنا بنشاط ووجدت نفسي في حديقة فواكه صغيرة ولكنها مزروعة بكثافة بـأشجار فواكه مـختلفة. كانت الفـاكهة الوحيـدة التي يمكن أكلها في هذا الوقت هي المشمش الذي كان من نوعـية ضعيفة، إلى جانب بـعض التفاح الخالي من الطعم، ومع هذا فقد التـهمناها بشراهة أثناء تجولنا لجمع الطيـور والفراشات، وكانت مطاردة اشتـرك فيها الصبيـان بشغف. احتوت الحديقـة أيضاً على خوخ، ورمان، وتين، وسفرجل، وشجرات التين الشوكي، وعنب معرَّش، ولكن نتاجها لم ينضج بعد. كان المكان مملوءاً بالعـصافير بينما احـتوت حقيبتي لفـترة ما بعد الظهر على طائر أبلـق من جنوب الجزيرة وأبيض العين الجذاب. وتحـصلت كذلك على حرباء كبيرة زرقاء تسمى محلياً وحر.

دُعينا أخيراً لتناول الغداء، وكانت وجبة ممتازة، وخاصة خبز البر لم نذق أحسن منها أطلاقاً. وألحَّ علينا مضيفنا أن نقضي الليلة في المنزل، غير أنني فضلت -كعادتي دائماً- أن أقضي الليل في الفضاء حتى أقوم بجمع الحشرات وبدراسة الفلك، وكان معسكرنا قد أقيم على أرضية درس الحبوب التابعة للقرية، وهي أرض كبيرة مسطحة مستديرة، مكسوة بالإسمنت المحلي، ونظيفة إلى درجة الجمال. كان علينا أن نغادر في اليوم التالي لنتحاشى أيّ ضرورة تتطلب عودة عبدالوهاب من أبها، غير أنه قد تم الترتيب لنا بقضاء يوم آخر في خميس مشيط بعد عودتنا من العاصمة في طريقنا إلى نجران. لقد أمضينا، ليلتين هنا في تلك المناسبة (١٤ و ١٥ يونيو)، ولما كانت الفرصة أكبر لاستكشاف كل المناطق المجاورة، فقد كان من المناسب أن أضمن كل معلوماتي عن هذه الواحة الممتعة في هذا الفصل. يخصص الطابق العلوي والسطح في هذه القصور الفارهة لحريم المالك ولكن، وقريب جداً من قصر عبدالوهاب، يوجد قصر آخر طويل، يبدو أنه مؤجر لخدم الحقل، واستجابة لطلبي أن أقوم بمسح المنطقة من موقع مرتفع، فقد أذن لي بالصعود إلى سطح هذا البناء بعد إبعاد امرأة أو امرأتين من الغرف العليا. يطل البناء من السقف، على منظر جميل للواحة وما حولها.

أكثر ما يلفت النظر حول هذا المكان أنه خالٍ من أشجار النخيل، أو أن ما يوجد منها قليل وبائس، ذلك لأننا على ارتفاع يفوق ذلك الذي تكون عنده مزارع النخيل مربحة. كما لا يوجد الكثير من الجنائن وحدائق الفاكهة، على الرغم من أنه في هذه الأوقات قام المواطنون الأثرياء في خميس مشيط ببذل جهد خاص لإنشاء مثل هذه الرفاهيات. كانت زراعة الحبوب هي الصناعة الرئيسة لهذه

المنطقة، بالذات القمح كمحصول ربيعي (صيف مبكر)، والدخن (ذرة) في الخريف والبرسيم. تغطي مزارع الذرة الصفراء، التي تم حصادها في هذا الوقت بالطبع، مساحات واسعة على كلا الجانبين لبطن مجرى وادي بيشة الواسع الرملي وروافده المحلية التي تروى بواسطة السيول وجزئياً من الآبار، والتي تكون في معظم الأوقات ذات فم واسع -في بعض الحالات يصل قطرها إلى ٢٠ قدماً- مع وجود حاجز غير ثابت من الحجارة لحجز الطمي عن حفرة البئر، والذي بعد عمق أقدام قليلة يخترق الجرانيت التحتي ليصل إلى الماء الذي يوجد عند عمق ثلاث قامات فقط من عند السطح. يسمى أحسن آبار المقاطعة دويحاً ويبعد حوالي ٣٠٠ ياردة من قصر أبي ملحة الرئيس.

كانت المسافة التي تفصل ذهبان عن عرق -وكلاهما على الجانب الأيمن- حوالي ميل ونصف الميل، ويجري المجرى بينهما ناحية الشمال الغربي. كما توجد بينهما على الجانب نفسه قريتان صغيرتان هما: آل عزيز قريبة من البئر الأولى، ودويح -قصر منفرد بجوار البئر- قريباً من البئر الثانية، وتقع أسفله قريتان صغيرتان على الجانب نفسه هما: شباعة والمسلوم، كما تقع قريتان صغيرتان وكلاهما يسمى سفك وأسفلهما قليلاً قرية المثناة كلها مكونة مجموعة من ثلاث قرى وكلها على الجانب الأيسر في مقابل ذهبان. توجد أسفل هذه ومقابل عرق قرى أخرى هي: قسل والدرب وقمبر، الأولى صغيرة، والأخيرتان متوسطتا الحجم وتوجد بينهما أرض مكشوفة، هي موقع سوق الخميس. توجد قرية ثالثة صغيرة تسمى سمدة بجوار مكان السوق -ولكن على الجانب الأيمن- ولكنها مدمرة. كما توجد مع اتجاه مجرى الوادي من هذه المجموعة من القرى، وأيضاً على الجانب الأيسر قرية آل حميلة مقابل شباعة ومن ورائها الغرابة حوالي ٣٠٠

ياردة أسفل منها، وقرية طيب الاسم إلى الخلف وراء آل حميلة. يتحد وادي عتود وهو رافد لبيشة مع بيشة بين الغرابة -على الجانب الأيمن لوادي عتود- وطيب الاسم على الجانب الأيسر، ويقع أسفل هذه أبو سليك وهي مجموعة نخيل واحدة عند منحنى مجرى بيشة من جهة الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي. توجد قرى صغيرة مبعثرة على امتداد وادي عتود أيضاً - هي الخلصة بعيداً في اتجاه أعلى الوادي، وعلى بعد ثلاثة أميال عن عرق وتكون قرى العطفة والرشيد والمشرف وزعاق وشعابة كلها أسفل منها في هذا الترتيب.

تتكون منطقة خميس مشيط، بناءً على هذا، من ٢٠ قرية وعدد من القرى الصغيرة. تشتهر الخلصة بأنها موقع قديم لكنني لم أقم بزيارتها. كما علمت عن عدد من القرى، أسفل أبو سليك وهي أكثر القرى انخفاضاً، وقرى صغيرة، في وادي بيشة منتشرة فوق مسافة من خمسة أميال إلى ٢٥ ميلاً أسفل العرق. وهي والجنفور -ويسكنها بنو منبه من بني مالك من عسير-، محايل -لبني بجاد شهران- ورشيدة، وأهل بثور، وظرافة، وأهل الشال، وشرقة، وقريرة -كلها أراضٍ الذرة الصفراء التابعة لشهران-، ثم شفان -رقعة مزروعة نخيلاً- ومعها بتنات ومعامل أخرى غير السابقة يقعان أسفلها. ومن القرية الأخيرة إلى العر بالقرب من ملتقى حرجب - بيشة، فإن الوادي -كما يقولون- خالٍ من القرى وهي مسافة يومين بالجمال أو حوالي ٥٠ ميلاً.

رافقت عبدالوهاب في اليوم الخامس عشر من يونيو، بعد عودتي من أبها، وبعض رجاله في جولة في الجزء الأعلى للوادي فوق ذهبان وقد رغب بصفة خاصة أن يريني هضبة معينة تسمى حمومة يعتقد أنها موقع لكنز مخبأ. استمتعت

تماماً بليلتي في العراء المكشوف على أرضية درس الحبوب في العرق، بعد أن كنت أنام داخل المنازل طيلة إقامتي في أبها، وأن أجد نفسي بعد هذه الليلة المريحة وقد تقوى جسمي بوجبة إفطار ممتازة من خبز وبيض ولبن وتمر، وبعدها بدأنا مغامرتنا عند الساعة السابعة والنصف صباحاً. وصلنا إلى الجانب الأيمن للوادي، بعد مغادرتنا لقصر سعيد بن مشيط بمسافة نصف الميل، حيث تنتهي مزارع ذهبان عند نقطة التقاء شعيب ذهبان مع بيشة حوالي الميلين من القصر في اتجاه أعلى الوادي. وصلنا فوراً إلى مجموعة من ثلاثة أو أربعة قصور تسمى الوقواق بعد أن انطلق ثعلب من بين الصخور عند تقاطع ذهبان، مررنا من وراء مجموعة الوقواق هذه، وعلى بعد ميل واحد، وأيضاً على الجانب الأيمن، قريباً من أكبر قرية، وهي الوقبة ذات القصور العديدة المبعثرة فوق مساحاتها الكبيرة المزروعة.

وصلنا إلى حرير على بعد ميل آخر وقريته الصغيرة على الجانب الأيسر للوادي، وذات عدد قليل من المنازل أيضاً على الجانب المقابل. وعبرنا المجرى بعد ميل واحد آخر، وكان عرض المجرى حوالي ٥٠٠ ياردة، أسفل قرية نعمان مع مساحة مزروعة معتبرة على الجانب الأيسر. وتقع قصور وحقول ذرة دونة قليلاً بعد ذلك، أيضاً على الجانب الأيسر، وتمتد إلى مسافة نصف الميل على طول المجرى وتنتهي عند رافد شعيب ويسمى أجبال وهو يتحد مع الوادي الذي يقع أعلاه. يهبط هذا السيل من تلال ضمك.

دخلنا منطقة زراعية كبيرة في صفوان على بعد ميلين أو أقل، وهي ذات قصور مبعثرة، تجري فيها حدود قبلية بين شهران -هنا رشيد كما في خميس مشيط- وقحطان (رفيدة). توجد أشجار في قصور الأخيرة وحدائق فيما بينها،

بينما تلك التي في شـهران فإنهـا تقوم على أراضٍ لزراعة الذرة الصفـراء. كانت نقطة الحدود الفـعلية هي قـصر يتنازع عليه والذي أُمـر أهل قحطان بمغـادرته قبل اكـتمـال بنائه. يتحـد عند هذه النقطة وادي بيـشـة، الذي عبـرناه الآن لنزور تل حمومة، مع شعيب عنقة ويرتفع إلـى حوالي ٢٠٠ قدم أعلى من خميس مشيط. يقف تل حمومـة على مثل هذا الارتفاع فوق مستـوى السهل قليلاً إلى الخلف من الجانب الأيمن لبيشة وقد كشف لنا عن منظر يثير الإعجاب لمرتفعاته العليا.

كانت قمة بركان القرن واضحة ناحـية شمال الشمال الشرقي، بينما تقع تلال القعمـة ناحية الشرق وتقع الأراضي المرتفـعة لسلسلة أحد ناحيـة الجنوب الغربي. كانت جبال عسير مرئية لنا من خلال حجاب من الغيوم. ويقع أمامنا ناحية الجنوب سهل واسع من رمال جرانيتية متموجه عارية صعبة، يخترقها وادي بيشة متجهة إلى موقعـنا ليقابل عنقة الهـابط من الشرق وشعيب آخـر هو شعيب البغث من نـاحية الغرب. كـانت أقصى نقطة في وادي بيشة نـستطيع رؤيتها، تبـعد حوالي خمـسة أميـال في تجويف واسع في سلسلة جبـال أحد حيث تنحـدر مارة بأرض مرتفـعة تسمى (المَرْبَع) بارزة؛ لتـعبر إلى الجانب القريب من خـلال مضيق توجد فيـه قريتا القرحاء ومـيسرة -وكلاهمـا يتبع ابن حاف من قحطان-. توجـد قرى آل قفي (أو ضاعي رفـيدة) وبني تميم وآل مـضر وكل هذه على الجانب الأيـسر، وتقع آل بريد على الجانب الأيمن مقابل القرية التي ذكرت أخيراً وتتقاسم معها شرف إقامة السوق المحلي، الذي يقام يوم الأحـد، وبسبب هذا فـإن الموقعين يسمـيان محليـاً «سوق الأحد». يوجـد موقع السـوق الفعلي على الجـانب الأيسر بين آل مضـر وسلسلة منخفضة، ويبعد أكثر من ميل واحد بقليل، من حمومة التي تمر من خلالها الحدود بين قحطان – شهران من القصر المتنازع عليه الذي ورد ذكره سابقاً.

تتجمع كل هذه القرى من هذا الخط الحدودي إلى آل قفي تحت اسم بيشة ابن سالم، وتسيطر على نفوذ حسين بن سمعان ابن سالم من رفيدة. تشتمل هذه المنطقة على مساحات واسعة لحقول الذرة الصفراء لآل ضاعي مع قصور مبعثرة من حولها. توجد قريتان في شعيب البغث تبعدان حوالي ميلين من حمومة وبالذات عند ملتقاه مع شعيب مخش، وهما تابعتان لموريغة التي يدخل من أسفلها البغث إلى بيشة بالقرب من قرى السوق. كانت القرى الصغيرة في شعيب عنقة هي: ربّة (بني قيس)، والدرب عقيلة (بني قيس) وعزمة (آل شواط) وكلها على الجانب الأيسر، تقع الأخيرة على مسافة ميلين من حمومة وتقع القابل مقابل درب عقيلة (على الجانب الأيمن).

هكذا كانت القرى في هذه المرتفعات العليا لوادي بيشة، والتي بناء على ما أوردته مصادر إخباري تنبع من البعيد إلى الجنوب من الجبال (تسمى الشعف) التابعة لقسم آل دحث التابعة لرفيدة – على مسافة رحلة يوم كما قالوا، لنقل ٢٠ ميلاً. لينحدر شعيب عنقة أيضاً من سلسلة جبال السرات عبر وادي الأبيض. وتوجد بركة كبيرة لمياه السيول أسفل ربّة وعلى الجانب القريب من سد الصعب وهي من مواد بازلتية.

اتضح لي أن قصة الكنز المخبأ في حمومة ما هي إلاَّ خرافة، وبعد فحص دقيق للمكان، تقدمت برأي «كخبير» بأنه لا يوجد مكان في التل (وهو من صخور بسيطة) يمكن إخفاء كنز فيه. عبرنا مجرى بيشة، بعد ذلك، مرة أخرى في منطقة تابعة للضاعي إلى أعلى من موقع عبورنا السابق، ووصلنا إلى تل آخر منخفض تحيط به بقايا قلعة قديمة، مبنية بمتانة من حجارة جرانيتية كبيرة ومشذبة

بعناية. تغطي مساحة كبيرة منها بقايا لمبانٍ قديمة مهجورة، ممثلة لمستوطنة أكبر من أية مستوطنة أخرى في الموقع أو قريباً. وجدنا من بين هذه حجر رحى ضخماً ساقطاً على الأرض، منحوتاً من صخرة جرانيتية، كان قطره ٦٩,٣ بوصة وقطر ثقبه المركزي ١٠,٤ بوصة. كانت هذه الأطلال -وبكل وضوح- التي لا يعرف الناس أي شيء عن تاريخها هي التي أطلقت القصة الشائعة عن الكنز المخبأ.

تناولنا غداءنا في موقع ليس بالبعيد من هذه الأطلال، تحت أجمة أشجار طلح جميلة، متوسطة الحجم، والتي وجدت فيها لدهشتي، عدداً كبيراً من طيور نقار الخشب، كان نقار خشبي الخاص -بالمناسبة- تابعاً لجنس جديد وقد اكتشفته لأول مرة بالقرب من الطائف وأيضاً في عشيرة. كان من المثير لي أن أجده هنا في هذا المكان البعيد ناحية الجنوب، غير أننا لسنا عند حدود انتشاره الجنوبية بعد، كما أمكنني أن أتحقق من ذلك في وقت لاحق في هذه الرحلة. كان هذا الطائر أعظم اكتشاف لي في التاريخ الطبيعي خلال رحلاتي في الصحراء. ومن المدهش أيضاً وجود نقار الخشب في الجزيرة العربية، كانت اليمامة اليمنية وآكلات النحل، أيضاً متوافرة، وكذلك الطيور النساجة وأعشاشها الجميلة المتأرجحة والطيور الثرثارة. تمكنت أيضاً من الحصول على صائد الذباب. ورجعت وزملائي إلى منزل أبي ملحة بقناعة كبيرة، بأن هذه النزهة كانت مثيرة بصورة غير عادية.

أقمنا في موقع المعسكر نفسه كما فعلنا من قبل، حين عودتنا من أبها عند غروب الشمس في اليوم السابق، غير أن عبدالوهاب كان قد سبقنا في هذه المناسبة، وأعد لنا مأدبة محترمة. فقد نشرت لنا ملاءة طاولة بيضاء كبيرة على

أرضية غرفة الاستقبال الكبيرة وعلى حافتها تم ترتيب الخبز المحلي المسطح المصنوع من القمح بالتبادل مع أوصال لحم الضأن. امتلأ وسط هذا القماش بزخم كبير من قحاف وسلطانيات محتوية على ما لذ وطاب، صحون من أرز في شريط مركزي وقد انغرزت ملعقة كبيرة في قلب كل واحد منها، وكانت هناك أطباق مملوءة بكميات كبيرة من السمن المستخلص من إليات الضأن -طعام شهي لم أستلطفه بالمرة- وسلطانيات تحتوي على قطع دجاج في حساء، وسلطانيات مملوءة بالخضراوات، وصحون من حلوى مختلطة مثل المهلبية وكعكات محلاَّة مقلية بالزيت (لقيمات) لقد كانت وجبة سخية، بالتأكيد.

ناقشنا بعد تناول القهوة شؤون الدولة وأموراً خاصة عائلية، علمت - الآن فقط - أن عبدالله أكبر أبناء عبدالوهاب الثلاثة - وعمره ١٦ عاماً - متزوج. ليس هذا فقط، بل إن والده كان مشغولاً في بناء قصر آخر، إلى الغرب من قصره، ليشغله ابنه الثاني وعمره ١١ عاماً بمناسبة زواجه الذي يتوقع أن يتم في المستقبل القريب. لاحظت أنه، في هذا القصر الجديد، كما في العديد من القصور القديمة، فقد تم استخدام شرائح من الخيزران على فترات في البناء القائم على طوب اللبن، ربما لأغراض اللصق، برغم أن التأثير العام كان للزينة. كانت أساسات هذه القصور والأجزاء التحتية من بلكات من الصخور، بينما كان البناء الفوقي مستدقاً عند أرضية عريضة إلى قمة عليا، أيضاً من الطين واللبن.

يجب أن أذكر زيارة قمت بها إلى أبها في الحادي عشر من يونيو، لأكمل وصفي لخميس مشيط، لغرض مستعجل وهو رؤية سوق الخميس. وبالمناسبة، لزيارة سعيد بن مشيط الرئيس الإسمي لقبيلة شهران. أعارني أمير أبها سيارته لهذا

الغرض، واستغرقت رحلتنا قليلاً فوق الساعة الواحدة لنغطي مسافة ١٨ ميلاً فوق الطريق الصعب المتعرج الذي يصل بين الموقعين. قدنا السيارة مباشرة إلى قصر سعيد بن مشيط، ولكننا وجدناه قد خرج، وذهب إلى السوق، حيث تبعناه. وجدناه في منزل عادي يمتلكه في قرية الدرب، عاقداً مجلسه، الذي يحضره أي شخص، خاصة من لهم مظلمة ليعربوا عنها، وذلك خلال فترات التسوق. كان معه ابنه الأكبر، حسين، وعمره ٢٠ عاماً، وأكبر أشقائه السبعة، وهو شاب جميل المحيا، متجهم الوجه قليلاً تكذبه جاذبيته التحتيه. كان بحق، ذا ميل لأن يكون ودوداً ومعه كل الثقة بالنفس لأن يكون أرستقراطياً بالميلاد. يبدو لي أنه سيكون شاباً واعداً.

كان والده -كما كان عبدالوهاب- ذا سمات سامية مبالغ فيها إلى حد ما -أو على الأقل مؤكدة في هذه الحالة- بلحيته الطويلة المتجهة إلى الأمام. جاء سلفه مشيط إلى هذه المقاطعة من بلاد جنوب قحطان (سنحان)، حوالي نهاية القرن الثامن عشر واحتل هذا الجزء من وادي بيشة بالقوة. كان هو وأسرته، وحتى إلى أزمان حديثة حقيقة حتى ضم مرتفعات عسير بواسطة قوات السعوديين تحت قيادة الأمير فيصل بن سعود[١] في عام ١٩٢١م، في انشغال مستمر بالحروب والثأر مع رفيدة وأقسام أخرى لقحطان، وقد لقب والده بالباشا مع بدلات مالية من الحكومة التركية لخدماته التي ساعدت على السيطرة على هذه البلاد الصعبة المراس أثناء الاحتلال التركي والذي انتهى فقط نتيجة للحرب العظمى.

(١) ابن سعود لقب الملك عبدالعزيز لدى الكتاب الأجانب، والمقصود: الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود -الملك فيما بعد-. (المراجعون).

كانت إجراءات السوق مملة، برغم وجود جمهور من ٥٠٠ فرد كلهم فيما يبدو كان مشغولاً بالبيع والشراء وكلهم يبدون في سعادة. وقد خصص قسم منفصل من السوق لكل بضاعة، في مساحة تسمى «مناخ» أو «أرض المعسكر» والتي استضافت في عام ١٩٢١م و ١٩٣٤م بالتتالي جيش الأمير فيصل والأمير سعود، خلال مرورهما عبر خميس مشيط. تعرض كل البضائع للبيع في الأرض المكشوفة، غير أنني لاحظت أن البضائع التي تباع بالقطعة، وما يباع لدى البقالات كانت توضع في أكشاك وكانت مغطاة بمظلات منخفضة.

سجلتُ بعض الأسعار التي كانت سائدة للفائدة وقد كانت كلها بالتأكيد على الجانب الرخيص. ثمن صفيحة تمور عبوة أربعة جوالين -مستوردة من خيبر أو بيشة- أو سلة قصب (حفص) ذات حجم مشابه، ما بين ٢,٥ إلى ٣ ريالات (ماريا تريزا). كان سعر القمح وزن ٦ أو ٧ أصْوُع للريال الواحد، والدخن ٨-٦ لأجل التقاوي، بينما كان الشعير عند ١٢ وسعر البن ريالان للصاع الواحد -كان قشر البن ثلاثة أَصْوُع للريال الواحد-. وكانت الصمعاء -وهي حبوب برية تؤكل، شبيهة بالسمسم-، تباع بسعر ٧ ريالات للصفيحة عبوة أربعة جوالين. كان سعر الضأن ثلاثة ريالات والثور أو البقرة عند ٢٠ ريالاً والجمال عند ٤٠ ريالاً.

دعاني سعيد وأخوه حسين مباشرة بعد الظهر لتناول وجبة الغداء معهما في قصرهما في ذهبان، الذي كان أكثر رفاهية من قصر عبدالوهاب. كانت الغرف التي شاهدتها بما في ذلك غرفة الاستقبال الرئيسة، مزخرفة بإحكام بالطراز العسيري للفن، بأنماط هندسية بالحبر، قام بتنفيذها النسوة كما هي الحال في أي مكان آخر. كانت الحديقة أيضاً أكبر بكثير من حديقة عبدالوهاب، وقد استمتعت

باستراحة ما بعد الظهر في ظل أشجار فاكهتها الكثيفة، وأحضرو لي بعدها صحناً من ثمار التين الـشوكي (برشوم) باكـورة إنتاج الموسم غيـر أنها كـانت ليست في أحسن حالهـا، ولكنها مقبولة بما فـيه الكفاية. تركت المنزل المضيـاف عند الساعة الخامسة مساء، لأعود إلى أبها، التي وصلتهـا مباشرة بعد الغروب. كانت خميس مـشيط تجـربة لذيذة. واحـة عظيمـة بلا أشـجار النخـيل، يسكنهـا أناس بسطاء ودودون، ذوو كياسـة لافتة للنظر. تقع إلى ما يليهـا، تلك المرتفعات الأسطورية لعسير، وعاصمتها أبها، التي لم ترها أعين الأوروبيين بعد.

obeikan.com